منهج المسلمين في تسجيل النص القرآني

أ. د. السيد رزق الطويل*

تمهيـــد :

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، فهدى من الضلالة، وأنقذ البشرية من الغواية، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإن المنهجية من أبرز سمات الفكر الإسلامي، وتستمد روافدها من نصوص الكتاب الحكيم والسنة الصحيحة؛ إذ في هذين النبعين الصافيين دعوة إلى التعقل، والنظر والتبصر، والتعامل مع الواقع تحت مظلة القيم الفاضلة، وتقدير العلم والعلماء، والتعويل على الإثبات، والتوثيق، والتصدي للأمية بكل صورها، وهذه كلها قواعد راسخة لكل منهجية قويمة.

وعندما استبانت هذه الحقائق لعلماء الأمة وأعلامها منذ القرن الأول الهجري تحركوا بخطى سريعة نحو التدوين والتصنيف لكل ما أثمره العقل المسلم من فكر واع، وما انتهى إليه من قواعد وأصول في جميع فروع العلم والمعرفة وفق الأسس السابقة..

والموعظة القرآنية في حقيقتها مجموعة من المناهج الراشدة لبناء النفس والمجتمع، وعلى سبيل المثال، منهج توثيق الديون في سورة البقرة(١)، ونظام التوريث في سورة النساء(٢)، ونقد عقائد المشركين في سورة الأنعام(٣)،

---

* أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر ـ كلية الدراسات الإسلامية والعربية.

(١) سورة البقرة (٢٨٢) (٢) سورة النساء (١١ ـ ١٤) (٣) اقرأ السورة كاملة

والوصايا العشر في آخرها(١)، والمنهج الأخلاقي في سورة الإسراء(٢)، ومعالم عباد الرحمن في سورة الفرقان(٣)، ووصية لقمان لابنه في سورة لقمان(٤) وهكذا.

وتسجيل النص القرآني كان أول بادرة حكيمة وسديدة في تاريخ المنهجية الإسلامية. والخطة التي اتبعت في التسجيل توافر لها كل عناصر التوثيق، مع الدقة، وحسن التأتّي وسد كل المنافذ التي يمكن أن يلج منها شك أو ارتياب في ذلك النص المكتوب.

وإني أعد هذا الذي حدث من منهجية دقيقة على طريق تسجيل النص القرآني قدراً مقدوراً يسره رب العالمين لإنفاذ أمر قضاه؛ إذ يقول سبحانه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

وفي هذا البحث

سأتناول ـ بإذن الله ـ معالم هذا المنهج الذي اتبع في تسجيل النص القرآني، والخطوات التي التزمت لتحقيق هذه الغاية العظيمة.

إن أول ما دون في تاريخ الفكر الإسلامي هو القرآن الكريم.

وقد تهيأت كل الضمانات للحفاظ على سلامة النص القرآني.

منها أمور أنفذها رب العالمين، ومنها أمور أخرى هدى عباده المؤمنين الذين حملوا مسؤولية منهج الجمع إلى إنفاذها.

وسأشير إلى الجانبين جميعا، وبذلك تتحدد تماما ملامح المنهج الذي اتبع في تسجيل النص القرآني.

---

(١) سورة الأنعام (١٥١ ـ ١٥٣)　　(٢) سورة الإسراء (٢٣ ـ ٣٨)

(٣) سورة الفرقان (٦٣) إلى آخر السورة

(٤) سورة لقمان من ١٢ ـ ١٩.

أما الجانب الأول فيشير إليه قوله سبحانه: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾(١).

فالروح الأمين نزل بالكتاب العزيز على قلب محمد عليه الصلاة والسلام، فلم تكن هناك فرصة للنسيان. لأن النسيان أو السهو يعرض لمن يتلقى شيئاً في المرحلة الأولى من مراحل التلقي فإذا وصل القلب، وثبت فلا سبيل إلى نسيانه، وهذا أمر اختص الله به نبيه صوناً، وحفاظا على الكتاب الخاتم.

ولأجل هذا عندما كان النبي ﷺ يردد العبارة القرآنية في أثناء التلقي قال له ربه ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾(٢) كما قال سبحانه : ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾(٣) فأكد أن النسيان غير وارد بالنسبة للنبي الكريم.

وثبات النص القرآني في ذاكرة النبي ﷺ مرحلة أولى تمت بتدبير إلهي كامل على طريق تسجيل النص القرآني.

وكان النبي ﷺ عندما يتلقى الآيات من لدن حكيم عليم، يُلقِّنها لأصحابه، ويرددونها أمامه، حتى يحفظوها تماما، وكان تحفيظه إياهم لآيات الكتاب العزيز مثلا أعلى يتشبهون به في كل ما يطلب إليهم حفظه من دعوات وأذكار.

كما كان يأمر كتاب الوحي، وهم كثر مثل: زيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وعثمان بن عفان، وآخرين، اختلفت في ذكرهم المراجع(٤).

وكانوا يكتبون مما يتلقون على ما تيسر لهم من وسائل، كالعظام وسعف النخل، والأحجار وكذلك بعض الرقاع من جلد أو ورق، أو نحو ذلك.

ثم دعمت قضية تسجيل النص القرآني بالعمل به، وتحويله إلى واقع

---

(١) سورة الشعراء (١٩٣ ـ ١٩٥) (٢) سورة القيامة (١٦ ـ ١٧)

(٣) سورة الأعلى (٦).

(٤) انظر البرهان جـ ٢ ص ٢٤١.

محس، بداية بالنبي ﷺ القدوة، والذي تلقى الكتاب الكريم من ربه، وانتهاء بالصحابة الأبرار الذين تلقوا عنه، وحفظوا وعملوا بما تلقوا وما حفظوا، ثم التابعين، وتابعيهم الذي التزموا الدرب القويم حتى وصل إلينا الكتاب الحق لم تمسسه سوءات التحريف والمحرفين.

وهنا تظهر جهود البشر التي يسرها رب العالمين لتحقيق الحفظ الموعود للقرآن الكريم. غير أنى ألحظ أن عملية تسجيل النص القرآنى منذ عصر النبوة سارت في محاور ثلاثة:

أولها : التلقي : أو نستطيع أن نسميه التسجيل الصوتى للقرآن الكريم، وهو له أهميته، وخطره، لأن التلقي، والالتزام به منهجا في تداول النص القرآنى يقطع الطريق على كل محاولات التصحيف، والتحريف، والإدراج، ولا يدع للريب سبيلاً أن يخلص إليه.

فالنبي ﷺ تلقى، وانطبع في ذاكرته ما تلقى بكل صور الاداء التي جاء بها الكتاب تيسيراً على العباد، ولم يأخذه ألواحاً مكتوبة شأن التوراة التي أنزلت على موسى.

وتلقاها الصحابة صوتياً من الرسول ﷺ، ولذلك كانوا إذا اختلفت عليهم صور الأداء رجعوا للنبي ﷺ، ليضبط الأداء ويزيل الوهم، ويبين للجميع أنهم على صواب فيما تلقوه من صور متنوعة للأداء القرآنى، والتي تعرف باسم القراءات، وأن الخلاف بينها خلاف تنوع لا خلاف تنافر وتضاد، وهذا أمر أجمع عليه علماء الأداء.

روى البخاري في صحيحه أن عمر بن الخطاب لبَّب هشام بن حكيم لما سمعه يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرئها الرسول لعمر، فقاده إلى الرسول ﷺ، فلما سمع من هشام قراءته قال: «كذلك أنزلت» ولما سمع من عمر قراءته قال: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»(١).

---

(١) صحيح البخاري جـ ٦ ص ٢٢٧ .

من هنا نخلص إلى نتيجة هي أن الرسول ﷺ تلقى القرآن من ربه بكل صور الأداء التي تستبقي معانيه، وتحافظ على أهدافه ورسالته، وتيسر لكل القبائل على اختلاف لغاتها تلاوته، ورويت القراءات الصحيحة عنه متواترة جيلا بعد جيل حتى انتهت إلى الزمن الذي نحن فيه، والتلقي عنصر أساسي في تداول النص القرآني.

ثانيها : التسجيل المكتوب :

وهذا أمر تحقق للكتاب العزيز منذ نزوله في مكة، كانت تنزل الآيات فيسجلها كتاب الوحي كما ذكرنا.

وحرصا على أن يكون التسجيل المكتوب محكما ودقيقا بحيث لا ينفذ إلى النص القرآني كلام سواه نجد النبي ﷺ يحذر أصحابه من تدوين شيء عنه غير القرآن الكريم، ومن سجل شيئا غيره فعليه أن يمحوه، وجاء في ذلك الحديث الشريف: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج»(١).

ثالثها : التطبيق **الذي جسَّد النص القرآني** حتى قالوا إن النبي ﷺ كان قرآنا يمشي على الأرض، كما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن».

وقد أشار الدكتور محمد عبدالله دراز إلى أهمية هذه المحاور في الحفاظ على النص القرآني خلال تأمله لكلمة «قرآن» ومالها من إيحاءات ذات دلالة بالغة، فيقول:

«روعي في تسميته قرآناً كونه متلوّاً بالألسن، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن حقه العناية بحفظه في موضعين لا في

---

(١) رواه البخاري.

موضع واحد أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾(١). فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على الهيئة التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر(٢).

هكذا تم تسجيل النص القرآني في عهد النبي ﷺ تسجيلا يقوم على أصول محكمة، ودعائم ثابتة.

في عهد أبي بكر :

اشتدت اليقظة في الحفاظ على النص القرآني، وتسجيله بصورة أثبت في مواجهة المتغيرات الجديدة التي ألمت بالدولة الإسلامية، إذ تولى الصديق الخلافة، وقد عصفت بدولة الإسلام الناشئة فتن تمثلت في حركة المرتدين ومانعي الزكاة، وأصر الصديق على مواجهة الفتنة بكل قوة، واستشهد في هذه المعارك جمهرة من حفاظ القرآن الكريم وقرائه الذين وعت صدورهم الكتاب العزيز.

وهنا يشير عمر رضي الله عنه على الصديق الذي اتخذ لنفسه منهج الاتباع للنبي الكريم ﷺ بأن يجمع القرآن في مصحف واحد خشية أن يضيع منه شيء بموت القراء، ويأبى أبو بكر، إذ رأى أول الأمر في ذلك العمل بدعة لم يعملها رسول الله ﷺ، ويظل عمر يحاوره حتى استبان له أن هذا العمل هو من صميم منهج الاتباع، لأنه يهدف إلى الحفاظ على دستور الأمة وكتابها الحق.

وهذا العمل له أهمية بالغة على طريق تسجيل النص القرآني، وذلك لأمرين:

---

(١) ساق الدكتور دراز هذه الآية وهي جزء من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة ليشير إلى أن طريق الحفظ يساند الكتابة، والعكس صحيح أيضا.

(٢) راجع كتاب «النبأ العظيم» ص (١٢ ـ ١٣).

أولهما : أنه لأول مرة سيجمع القرآن مكتوبا في مصحف واحد.

والآخر : أنه لم يعد يعتمد على ذاكرة الحفاظ، كما كان متبعا من قبل في بعض الآيات.

ولنترك زيد بن ثابت يقص لنا كيف تم على يده ومن معه من حفاظ الصحابة هذا العمل الكبير، وقد أرسل إليه أبوبكر، فقال له: إنك رجل، شاب، عاقل، لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن، واجمعه، قال زيد: فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ من الذي أمرني به من جمع القرآن، أجمع من الرقاع، واللخاف، وصدور الرجال حتى وجدت سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ إلى آخر السورة، فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر»(١).

ولا شك أن جهود الحفاظ والكتاب توافرت مع زيد الذي رأس هذا العمل حتى تم هذا الإنجاز العظيم، وتحققت خطوة هامة على طريق تسجيل النص القرآنى عول القوم فيها على محور الكتابة ورسم المصحف.

وظل مصحف أبي بكر مرجعا مكتوبا للكتاب العزيز، تسانده النقول المتواترة والتي لا ريب فيها لقراءات رسول الله ﷺ، والتي تمثل تسجيلا صوتيا. ولم تحدث مشكلة ما، ولم تنفتح على هذا اليقين ثغرة حتى نهاية عهد عمر الذي عرف بصيانة النصوص الإسلامية من القرآن والسنة بالتحري والتدقيق والتوثيق.

الجمع الثاني للقرآن الكريم :

كثر الرواة والقراء لصور الأداء المختلفة من القرآن الكريم سواء ما صح منها وهو ما توافرت فيه الشروط الثلاثة للقراءة المقبولة، وهي السند المتواتر

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٧.

الصحيح، وموافقة العربية بصورة من صورها الصحيحة، وموافقة رسم المصف، أم ما شذ منها، وهي القراءة التي تخلف فيها أحد الشروط الثلاثة، وأصبح هذا يشكل ثغرة بدا خطرها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي بلغه خطر هذا الأمر، وهو قارىء من خيرة قراء الصحابة، فخطا خطوة منهجية سديدة على طريق ضبط النص القرآني وتسجيله.

وسندع الصحابي الجليل أبا حذيفة يصف هذا الموقف، ويشرح التصرف الذي قام به، وقد حضر فتح أرمينية، وأذربيجان، ورأى الناس يختلفون في قراءتهم للقرآن الكريم، ويقول أحدهم للآخر: قراءتى أصح من قراءتك، فأفزعه ذلك، وقدم على الخليفة عثمان ليقول له: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة(١) أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها، فأرسلتها إليه، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم فكتب منها عدة مصاحف، فوجه بمصحف إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وثالث إلى مكة، ورابع إلى اليمن، وخامس إلى البحرين، وأمسك لنفسه مصحفا، يقال له : المصحف الإمام(٢).

وأضاف الخليفة الراشد إلى ذلك بأن أمر بإحراق ما عدا هذه المصاحف الستة أو السبعة على الخلاف في ذلك، وقد كان بيد بعض الصحابة مصاحف خاصة بهم مثل: علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، كما ذكروا مصاحف أخرى لزوجات النبي ﷺ، مثل عائشة وحفصه، وأم سلمة(٣).

---

(١) هي بنت عمر بن الخطاب وإحدى أمهات المؤمنين.

(٢) انظر المصاحف للسجستانى ص ١٢، والنشر في القراءات العشر جـ ١ ص ٥١..

(٣) انظر المصاحف للسجستانى ص ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٨٨ وانظر منجد القارئين لابن الجزري ص ١٦ ومابعدها.

وأرسل إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية مع المصحف صحابيا قارئا يكون مرجعا صوتيا يضبط الأداء بجانب المصحف المكتوب.

نظرة تقويمية لهذا العمل العظيم :

هذا العمل الذي تم على عهد ذي النورين لم يصدر عنه باعتباره حاكما حركته الغيرة على كتاب الله فحسب، ولكن باعتباره قارئا وخبيرا بهذا الأمر ويدرك أبعاد الخطة المثلى التي يجدر اتباعها، ولذلك بين لمن كلفهم بهذه المهمة الأسلوب الذي يجب اتباعه، وكانوا جميعا أهل علم وفقه، وفصاحة، كما كانوا مدركين لخطر المهمة.

اعتمد على المصحف الذي تم جمعه في عهد أبي بكر،وهو أوثق المصاحف، وأدقها، والأمر بإحراق المصاحف الأخرى يراد به الضبط والإحكام، إذ كان في بعضها زيادات وتفسيرات يراد بها الشرح، فيرويها بعضهم على أنها من القرآن، وهذا هو السر في وجود بعض القراءات الشاذة، فسد عثمان رضي الله عنه هذا الباب.

أمر آخر يبرز قيمة هذا العمل هو أن عثمان رضي الله عنه توخى التسجيل الصوتى، أو ضبط الأداء والنطق مع التسجيل المكتوب عندما أرسل مع المصحف صحابياً قارئاً.

كما أن خط المصحف العثمانى وسع الأحرف السبعة التي ورد بها الحديث الشريف، وكان وعاء صالحا لها، قال مكي بن أبي طالب: إن القراءات التي وافقت خط المصحف هي من السبعة الأحرف كما ذكرنا، وما خالف خط المصحف أيضا من السبعة إذا صحت روايته ووجهه في العربية، ولم يضاد معنى خط المصحف، لكن لا يقرأ به، إذ لا يأتى إلا بخبر الآحاد ولا يثبت قرآن بخبر الآحاد؛ إذ هو مخالف للمصحف المجمع عليه...»(١).

وهذا الأمر يكشف عن مدى الضبط الذي ترتب على ظهور المصحف

---

(١) انظر الإبانة لمكي : ص ٥٦.

العثماني، فالمخالفة لرسم المصحف وإن كانت الرواية صحيحة تعني أنها فقدت التواتر، وأنها ليست بقرآن فلا يقرأ بها.

وأصبح لخط المصحف العثماني سمت مميز يحافظ عليه المسلمون إلى الآن، وهو غير خاضع لتطور الرسم الإملائي، وكان العلماء الأوائل يقولون: خطان لا يقاس عليهما: خط المصحف العثماني وخط العروضيين.

ونتيجة هذا العلم تكشف عن قيمته.

فقد توقفت الاختلافات والمنازعات حول تفضيل قراءة على أخرى، ولا سيما في الأمصار البعيدة، إذ منع عثمان القراءة بما يخالفها، وأصبح رسمها حجة، وتلقت جماهير الصحابة والتابعين هذا العمل العظيم بالقبول، وأجمعوا عليه، وسار على ذلك من بعدهم من تابعي التابعين إلى يومنا هذا، وأصبح رسم المصحف العثماني أحد الشروط الثلاثة في قبول القراءة(١).

ولا يزال هذا الالتزام قائما، وله حكمة بالغة، وسار عليه جمهرة علماء الأمة إلى وقتنا الحاضر. حتى ذهبوا إلى أنه توفيقي، كتب به كتبة الوحي، وسار عليه الصحابة القراء في الجمع الأول والجمع الثاني، حتى إن الذين ترخصوا كان ترخصهم في حدود ضيقة جدا، والذين أجازوا الرسم الإملائي مطلقا لم يلقوا قبولا من جمهرة المسلمين إلى الآن.

روى السخاوي أن مالك بن أنس سئل: أرأيت من استكتب مصحفا، أرأيت أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك، ولكن يكتب على الكتبة الأولى(٢).

أما الإمام أحمد بن حنبل فقال: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو، أو ألف، أو ياء، أو غير ذلك(٣).

---

(١) انظر كتابنا : في علوم القراءات : مدخل ودراسة وتحقيق ص ٢٤٩.

(٢) انظر البرهان للزركشي ١/٣٧٩، والإتقان للسيوطي ٢/٢٨٣، والمحكم للداني ص ١٥.

(٣) المراجع السابقة.

ومن المحدثين الأستاذ حفني ناصف، ويرى وجوب المحافظة على الرسم العثماني لمعرفة القراءة المقبولة والمردودة، وفي المحافظة احتياط شديد لبقاء القرآن الكريم على أصله لفظا وكتابة، فلا يفتح فيه باب الاستحسان(١) وهذا الرأي أيدته لجنة الفتوى بالأزهر(٢).

والتشدد في هذه القضية إنما يهدف إلى الإمعان في المحافظة على سلامة النص القرآني، وهو أمر التقت عليه جهود العلماء.

وبعد المصحف الإمام

سار أمر النص القرآني على النحو الذي وصفته من محافظة بالغة، وتربص واع للمتغيرات التي قد ينال النص القرآني نيل منها.

وظل تداول النص القرآني بين المسلمين يعتمد على الأمرين: التسجيل الكتابي، والتسجيل الصوتي أو الأدائي.

وفشا اللحن بدخول غير العرب في الإسلام، وخشي الغُيُرُ من أعلام الأمة من أن يعدوَ على الكتاب عادية اللحن، وقد وقعت أحداث من هذا القبيل، فتحركوا من أجل الحفاظ على تسجيل النص القرآني سليماً، وافرا في محورين:

أولهما : محاولة وضع قواعد للعربية، تعصم الألسنة من الخطأ في الأداء القرآني وفي الكلام العربي بعامة، وتم ذلك بمعرفة أبي الأسود الدولي، وبتوجيه من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

والآخر: سار عليه بعض النحاة القراء من تلامذته، وذلك بنقط المصحف لإزالة الإعجام بعد أن تفشى اللحن وانتشر، وأصبح من الاحتمالات الواردة أن يستعصي فهم القرآن على بعض هؤلاء الذين استعجموا، وهؤلاء التلامذة، هم نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعبدالرحمن بن هرمز، وعنبسة الفيل، «نقطوا المصحف، وأخذ عنهم النقط، وحفظ، وضبط، وقيد، وعمل به واتبع فيه سنتهم، واقتدى فيه بمذاهبهم»(٣).

---

(١) مجلة المقتطف يوليو ١٩٣٣.

(٢) مجلة الرسالة عدد ٢١٦ سنة ١٩٣٧.

(٣) المحكم في نقط المصاحف للداني، والتصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري ص ١٠.

على أننا نضيف إلى وضع قواعد للعربية عملا جليلاً قام به أيضا أبو الأسود الدؤلي،واتبع فيه منهجا علميا دقيقا يلائم عصره، وهو نقط المصحف للدلالة على إعرابه، ومعرفة الضبط الصحيح للفظ القرآنى، وهي خطوة لها قيمتها على طريق تسجيل النص.

أما الطريقة التي اتبعها فتتمثل في أنه تخير كاتباً، فطناً، قوي الملاحظة ليراقب حركة شفتي أبي الأسود وهو يقرأ، فالحرف الذي ترتفع عنده شفته يضع بين يدي الحرف نقطة، والذي تنفتح عنده شفتاه يضع نقطة فوق الحرف دلالة على النصب، كما أن السابقة دلالة على الرفع، والحرف الذي تنكسر فيه شفته يضع نقطة تحت الحرف دلالة على الجر(١).

وهكذا ضبطت كلمات القرآن إعرابيا على هذا النحو، ولما وضع نقط الإعجام فيما بعد كتب بلون مخالف ليتميز نقط الضبط من نقط الإعجام.

وفي وقت لاحق استبدل بالنقط علامات للضبط الإعرابي مأخوذة من رسم حروف المد، فوضعت الواو فوق الحرف دلالة على الضم، والياء تحت الحرف دلالة على الجر، والألف المائلة فوق الحرف دلالة على الفتح. وتطورت علامة الجر من ياء إلى الوضع التي هي عليه الآن.

وهكذا يتبين لنا أن هؤلاء الأعلام أبا الأسود وتلامذته قاموا بعمل بالغ الخطر، عظيم الشأن، أحاطوا فيه تسجيل النص القرآنى بسياج يمنع اللحن فيه.

كما مهدوا بذلك لتنامي الدرس النحوي، وتعدد وجوه البحث فيه، وهو دراسة قامت كما أشرنا من أجل خدمة النص القرآنى وسلامته.

وبدأ التصنيف في جوانب أخرى من المعارف اللسانية تستهدف الغاية نفسها، مثل علوم البلاغة، وصوتيات اللغة، واللهجات وقضايا فقه اللغة.

---

(١) انظر تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم للقاضي أبي المحاسن، المفضل التنوخي المعري ، ص ١٦٧.

تسجيل النص القرآني بالقراءات الواردة :

بعد عملية النقط لإزالة الإعجام، وبعد الضبط الإعرابي للمصحف العثماني بالنقط ثم الشكل وعندما صار الأمر إلى الحال التي وصفها ابن الجزري في قوله: لما كانت المائة الثالثة، واتسع الخرق، وقل الضبط وكان علم الكتاب والسنة أوفر ما كان في هذا العصر؛ تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات»(١).

وهذا يكشف بوضوح عن مدى الحاجة الملحة لتسجيل النص القرآني بصور الأداء المتعددة، وهذا الأمر لم يفت العلماء الأعلام في هذا العصر.

واتجه الباحثون إلى أن أول إمام يعتدّ به، صنف في هذا العلم هو الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ حيث جمع في كتابه قراءة خمسة وعشرين قارئاً(٢).

وذهب حاجي خليفة إلى أن أول من نظم كتابا معتبرا في القراءات السبع هو الحسين بن عثمان بن ثابت البغدادي الضرير، المتوفي سنة ٣٧٨ هـ (٣).

وهذا الذي قرره صاحب كشف الظنون بعيد عما قرره المحققون من المؤرخين، إلا إذا كان في حسابه أنه يعني أول من دون في القراءات نظماً، ومبلغ ما نستفيده حينئذ من هذه المعلومة أن النظم شارك النثر في تسجيل الصور المتعددة للأداء القرآني.

وذهب بعض المعاصرين إلى أن أوّليّة التدوين للقراءات ترجع إلى يحيى ابن يعمر، المتوفى سنة ٩٠ هـ (٤). وفي هذا الاتجاه جانب كبير من المبالغة، وذلك لأمور منها :

---

(١) انظر النشر جـ ٢ ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق، وانظر الفهرست لابن النديم ص ٥٣.

(٣) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٣١٧.

(٤) ذهب إلى هذا الرأي الأستاذ فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي ـ قسم القراءات جـ ١ ص ٩، والدكتور عبدالهادي الفضلي: القراءات القرآنية ـ تاريخ وتعريف ص ٢٧.

أن القرن الأول لم يكن عصر تأليف في أي فرع من فروع المعرفة، وإنما كان عصر رواية، وإنه إذا وجد في أحد المراجع أن يحيى بن يعمر كتب في القراءات فليس معنى هذا أنه دون مؤلفا يعتد به، وهذا لا يقدح في مكانته العلمية وإسهامه في خدمة القرآن الكريم.

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست من بين كتب القراءات : كتاب القراءات لأبي عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ وأحد القراء السبعة، والرأي فيه لا يتعدى ما ذكرته في أولية يحيى بن يعمر.

ونخلص من هذا إلى أن ابن سلام، كما قال صاحب النشر، أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب(١)

القراء السبعة... مرحلة هامة في ضبط تنوع الأداء.

القراءات الصحيحة كثيرة ومتعددة، وتربو على خمسين قراءة، وهي كلها داخلة في إطار الأحرف السبعة الواردة في الحديث الشريف، والتي يعنى بها عند المحققين من العلماء تنوع صور الأداء حسب الإمكانات الصوتية المختلفة للغات القبائل، وإن التحديد بالسبعة لايعني إلا الكثرة.

وهكذا يتضح لنا أن القراءات السبع غير الأحرف السبعة.

فكيف ظهرت قضية القراءات السبع؟ وما أهميتها في تسجيل النص القرآنى؟

جاء هذا العَلَم النابغة أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ورأى تعدد صور الأداء بطريقة قد توقع في الخلط أو اللبس، ولا سيما عند العامة وإن كانت صحيحة، وتبدى له أن الأمر في حاجة إلى مزيد من الضبط والإحكام، حفاظا على النص القرآنى.

ولكن ما السبيل إلى هذا؟

---

(١) انظر كتابنا في علوم القراءات ص ٣٥، ص ٣٦.

إن القضية يحسمها التسجيل الصوتي بأن يُعْتَمَد لكل مصر قارىء، متقن، مجيد، ضابط، اشتهر بين أهل المصر بهذا، وارتضوا إمامته، وذلك ليكون أداؤه للمصحف الإمام بالرواية المتواترة التي اختارها، حجة وقدوة لأهل مصره لا يخالفونه في أدائه(١).

وعلى هذا الأساس تخير من مكة ابن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ.

ومن المدينة نافعاً المتوفى سنة ١٦٩ هـ.

ومن الشام ابن عامر المتوفى سنة ١١٨ هـ.

ومن الكوفة حمزة المتوفى سنة ١٥٦ هـ وعاصماً المتوفى سنة ١٢٧ هـ والكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ.

ومن البصرة أبا عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ.

تلقى جمهور العلماء عمل ابن مجاهد بالقبول وارتضوا إمامة من اختارهم أئمة للإقراء في أمصارهم، وتوفر لكل إمام رواة يروون قراءته من بعده.

ولا تزال شهرتهم وإمامتهم والثقة فيهم قائمة حتى عصرنا الحاضر.

ثم أضيف إلى سبعة ابن مجاهد ثلاثة آخرون لاقوا قبولاً كسابقيهم، ومنهم من كان في أول أمره راوياً لأحد القراء السبعة، وذلك مثل خلف راوي قراءة حمزة والثلاثة القراء هم :

أبو جعفر، المتوفى سنة ١٣٠ هـ وكان بالمدينة.

ويعقوب، المتوفى سنة ٢٠٥ هـ وهو إمام أهل البصرة.

وخلف بن هشام المتوفى سنة ٢٢٩ هـ والمعروف بخلف العاشر، وهو بغدادي.

---

(١) انظر المرجع السابق.

ولا أدلّ على قيمة عمل ابن مجاهد، وعظم تأثيره من بقائه خالدا مشتهرا بين الناس حتى يومنا هذا، وسد بهِ بابا قد ينفذ منه مرتاب أو متشكك.

يقول الدكتور شوقي ضيف: والحق أن ابن مجاهد ـ نضر الله وجهه ـ أدى للأمة عملا باهرا باختيار هؤلاء السبعة؟ إذ كانت قد أدت كثرة الروايات في القراءات إلى ضرب من الاضطراب عند طائفة من القراء غير المتقنين(١).

في العهود التالية حتى عصرنا الحاضر.

ظلت العناية قائمة عن طريق علماء القراءات واللغة والنحو، تتجه إلى العمل على توفير أسباب السلامة للنص القرآني، فإذا بدا ما يثير الخوف عليه نتيجة المتغيرات المستمرة سارعوا إلى وضع الضوابط التي تجعل النص القرآني المكتوب في سياج أمين.

وإذا ظهر من أي قارىء أي نوع من الخلل في الأداء تصدوا له، وسارعوا إلى مخاصمته لدى القضاء وإلزامه الجادة.

يقول ابن مجاهد عن ابن محيصن (١٢٣ هـ) وأحد رواة القراءات الشاذة: ولولا ما في قراءته من مخالفة المصحف، وكان لابن محيصن اختيار في القراءة على مذهب العربية، فخرج به عن إجماع أهل بلده، فرغب الناس عن قراءته، وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتباعه(٢).

وعلى هذا الدرب سار العلماء.

فتوالى التصنيف في القراءات، وشملت مصنفاتهم أصول القراءات المعروفة، مثل الوقف والابتداء، والإدغام والتبيين، والمد والقصر، والهمز والتسهيل والإمالة والفتح، والتفخيم والترقيق، وأحكام الهاءات، والياءات، ووصل ميم

---

(١) السبعة لابن مجاهد ـ المقدمة ص ٣٤.

(٢) انظر السبعة لابن مجاهد، وإتحاف فضلاء البشر عند الحديث عن ابن محيصن. وانظر النشر ففيه أمثلة للتصدي للانحراف.

الجمع وهاء الضمير، كما شملت الفرش وهو ما ورد من روايات متواترة تتصل بأداء آية بعينها، لا يطرد هذا الأداء في غيرها، كما دونوا القراءات الشاذة لتلافيها.

كما ألفت مصنفات شتى في التوجيه النحوي واللغوي للقراءات.

وفي عصرنا الحديث أضاف العلماء للمصحف العثماني بعض الضوابط، والعلامات التي تساعد على الأداء الصحيح لكتاب الله تعالى، ولا سيما أن العجمة قد انتشر أمرها، وعجزت كثير من الألسنة عن النطق السديد، وذلك مثل علامات الوقف، وأرقام الآيات، والإشارة إلى مواضع سجدات التلاوة، وأوائل الأرباع والأحزاب، والأجزاء، ونحو ذلك.

وقد توقف بعض العلماء أول الأمر في قبول هذه الإضافات لما فيها من زيادات غير موجودة في المصحف العثماني الذي ارتضته الأمة، لكن أهل الفطنة استبان لهم ما في هذا العمل من حفاظ على سلامة الأداء في الكتاب العزيز.

وفي العالم الإسلامي الآن هيئات في أماكن عدة تتوفر على مراجعة النص القرآني مراجعة دقيقة على يد خبراء في اللغة وعلوم القراءات، وذلك قبل طباعة المصحف، وتداوله بين الناس.

خاتمـــة

هكذا استبانت لنا أبعاد الخطة الراشدة التي اتبعها المسلمون لتسجيل النص القرآني، وكان منهجهم في ذلك الحرص على أمرين :

أولهما : التسجيل الصوتي، أو الأداء والمشافهة.

والآخر : التسجيل الكتابي، وهو المعروف برسم المصحف.

وهذا المنهج المتبع التزم في تسجيل ما ورد متواترا عن رسول الله ﷺ من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم خلال صور الأداء المروية بطريق التواتر.

وظل هذا التسجيل قائما إلى عصرنا هذا، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فلا يزال التعويل على الأداء الصوتي قائمـاً، وعنصر التلقي عن طريق المشافهة هو العمدة في عملية تناقل النص، أو الحفظ والتحفيظ، بل إن الحاجة الآن إليه ماسة أكثر من ذي قبل، لانتشار العجمة، ومغالبتها للفصحى، حتى إن الذي يكتب محتاج إلى أن يراجع ما كتب على الحافظ ليدله على الأداء الصحيح.

والتقدم الصناعي الآن، وظهور مسجلات الأصوات، وانتشار إذاعات القرآن الكريم على ساحة العالم الإسلامي هيأت الأسباب لاستمرار التلقي والمشافهة، حتى إننا الآن أصبحنا نرى عجبا، نرى أناسا من غير العرب يقرؤون القرآن الكريم على أحسن صور الأداء حتى اذا فرغوا من القرآن وقراءته لا يستطيعون النطق الصحيح لكلمة من كلم العربية. وهذا في تقديري آية من آيات الكتاب الحق، وشاهد على خلوده.

أما التسجيل المكتوب، فقد تعددت صوره، وتنوعت الجهود في سبيله، وتصدت هيئات للقيام عليه، وكل منها ملتزم بالرسم العثمانى، مع زيادة بعض المصطلحات والعلامات التي تعين على سلامة الأداء، ولا تخل بمهمة الرسم العثمانى التي أصبحت إحدى دلالات صحة القراءة.

كما ظهر على الساحة معاهد، وأقسام علمية ببعض الجامعات الإسلامية توفرت على دراسة القراءات، ومنها ما يتصل برسم المصحف، وما يرتبط بذلك من قضايا.

ومن هنا يتضح لنا سلامة المنهج الذي اتبعه المسلمون منذ العصر الأول إلى الآن في تسجيل النص القرآنى، وأنه يقوم على أسس علمية راسخة، وضعت في اعتبارها المتغيرات الطارئة. وأن كل هذا الجهود المبذولة يسرها رب العالمين لتحقيق وعده الذي لا يتخلف ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

والله ـ وحده ـ الهادي إلى سواء السبيل،،

ثَبَتُ المصادر والمراجع

١ ـ الإبانة عن معانى القراءات لمكي بن أبي طالب، تحقيق د. عبدالفتاح شلبي، مطبعة نهضة مصر.

٢ ـ إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، للبنا الدمياطي، تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل.

٣ ـ الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي، القاهرة، دار التراث، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

٤ ـ البرهان في علوم القرآن : الزركشي، القاهرة، دار التراث، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

٥ ـ تاريخ التراث العربي : فؤاد سيزكين، قسم القراءات.

٦ ـ تاريخ العلماء النحويين : للقاضي المفضل التنوخي المعري، تحقيق الدكتور عبدالفتاح الحلو.

٧ ـ التصحيف والتحريف : لأبي أحمد العسكري.

٨ ـ السبعة : لابن مجاهد، دار المعارف بمصر، تحقيق د. شوقي ضيف.

٩ ـ صحيح البخاري : مصر، الطبعة الشعبية.

١٠ ـ في علوم القراءات : مدخل ودراسة د. سيد رزق الطويل (مكة المكرمة).

١١ ـ الفهرست، لابن النديم، دار المعرفة بيروت.

١٢ ـ القراءات القرآنية ، عبدالهادي الفضلي.

١٣ ـ كشف الظنون : لحاجي خليفة.

١٤ ـ المحكم في نقط المصاحف : أبو عمرو الدانى.

١٥ ـ المصاحف : للسجستانى، تحقيق د. جفري آرثر، المطبعة الرحمانية، ١٩٣٦.

١٦ ـ منجد القارئين : لابن الجزري.

١٧ ـ النبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت.

١٨ ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري تحقيق سالم محيسن، القاهرة.